التأصيل الجينيالوجي لمفهومي الهوية والمواطنة

Genealogical rooting of the concepts of identity and citizenship

عبد الحفيظ البار [1*] خولة مسيكة [2]

[1] جامعة حمه لخضر الوادي barr-abdelhafid@univ-eloued.dz

[2] جامعة 8 ماي 1945 messikaamira@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2018/10/20 ؛ تاريخ القبول : 2018/11/01

ملخص :

لا ريب أن سؤال الهوية ومسألة المواطنة إشكالية الراهن الإنساني بامتياز، وبالإمكان تبرير هذه المركزية بأزمة الاغتراب واستشكال الهويات التي شملت العصر الراهن بما حفل به من حروب وما نتج عنها من أقليات ومشكلات عرقية ودينية أدَت إلى التباس مفهوم المواطنة، وعليه سنعالج في هذا البحث التأصيل الجينيالوجي للمواطنة والهوية انطلاقا من التحديد اللغوي والاصطلاحي للمفهومين، ثمَ التتبع الكرنولوجي لنشأتهما في الفكر الفلسفي كمشروع ينجز في التاريخ بصورة تدريجية وعبر مراحل وتتدخل في إنجازه العديد من العوامل المختلفة، ولعَل التحليل التاريخي لمسار الهوية والمواطنة في هذا البحث ينتهي إلى القول بأن الهوية مطلب إنساني الكل ينشد تحقيقه بالموازاة مع تفعيل الحضور الإنساني داخل الدولة بتحقيق شروط المواطنة.

الكلمات المفتاحية : المواطنة ؛ الحداثة ؛ الهوية ؛ الديمقراطية ؛ مشكلة الأقليات.

Abstract :

The question of identity and the issue of citizenship is currently the problem of humanity , because of the crisis of expatriation and the formation of identities that included the current era of wars and its resulting minorities and ethnic andreligious problems that led to the difficulty of the concept of citizenship. Therefore, we will address in this article the origin of the terms of identity and citizenship based on the linguistic and standard of the two concepts, their inception in philosophical thought as a historical project through stages, and the historical analysis of the path of identity is a human requirement that everyone wants to achieve while fulfilling the conditions of cizenship.

Keywords : Citizenship ; Modernity ; Identity ; Democracy ; The minority problem.

* المؤلف المراسل.

1- مقدمة

في ظل تسارع التغيرات التي يعيشها العالم اليوم في جوانب الحياة المختلفة-السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية-فإن الحاجة تمس إلى تحرير عدد من المصطلحات التي غالبا ما تكون عرضة للتساؤل، ولعَل مفهوم المواطنة والهوية من أكثر المصطلحات حاجة إلى الإثارة والمدارسة والفهم ومن ثم التجسيد، بهذا توجد مسألة المواطنة والهوية في صلب الاهتمامات الفكرية للعديد من الباحثين والأكاديميين منذ عدة عقود.

لذا تعددت اتجاهات الهوية وتنوعت انشغالاتها فقد أدى انقسام بعض الدول إلى بروز الهويات الفرعية مع ارتفاع رصيد فكرة حقوق الإنسان ومبادئ المواطنة والمساواة وازدياد العنف والحروب خصوصا في بلداننا العربية، وفي ظل التعددية الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ارتقى جدل الهويات وصراعها إلى مصاف المواضيع المهمة في الفكر السياسي والفلسفي الراهن.

لهذا صغتُ اشكالية جوهرية لهذه الدراسة في الصياغة الاستفهامية الآتية: كيف نظَّر المفكرون والفلاسفة لمسألتي الهوية والمواطنة عبر تاريخ الفلسفة؟ ما العلاقة بين الهوية والمواطنة؟ وكيف تحقق الهوية مع المواطنة الاندماج الوطني والانتماء؟

كان الهدف من هذه اشكالية هذا البحث التوغل في أعماق مختلف المقاربات الفلسفية لمسألتي الهوية والمواطنة بالنقد والتفكيك، ومحاولة رصد ما يحيط بهذه المسألة، فلقد استدعى التحول الذي أحدثته الفلسفات الحداثية والما بعد الحداثية مطلع القرن الماضي البحث الدقيق، لأجل الوقوف على حقيقة مسألتي الهوية والمواطنة، والعلاقة التفاعلية بينهما، الأمر الذي تطلب توظيف مناهج أراها مناسبة لذلك فاستعنتُ بالمنهج التحليلي، طالما أنني أتوجه إلى الكثير من الرؤى الفلسفية الحديثة والمعاصرة، بقراءة نصوصها وتحليل مكوناتها واستخراج أفكارها فيما يرتبط بالأطاريح حول الهوية والمواطنة، كما اعتمدتُ على المنهج المقارن لأني رأيت مجال المقارنة متاحا حينما أتوجه إلى تلك الرؤى المختلفة الحداثية والما بعد حداثية، وأخذتُ بالمنهج النقدي أيضا، فذلك من طبيعة أي دراسة فلسفية تنشد الموضوعية.

لم يكن البحث هذا، ليكتمل في عباراته ومعانيها، لولا تلك المراجع التي توجّهتُ إليها ولعل برزها وكانت مصدر مادة موضوعي المعرفية ولعل أهمها ما كتبه دومينيك شنابر (ما المواطنة؟) وما كتبه سيدي محمد ولد يب (الدولة وإشكالية المواطنة) وفارح مسرحي (المواطنة من الفكرة إلى العمل) بالإضافة إلى الموسوعات والقواميس التي ضبطت المفاهيم وأوحت ببنيتها الدلالية.

1- سؤال الهوية "المفهوم والجينيالوجيا":

1-1- "الهوية" مقاربة مفاهيمية:

يعد مفهوم الهوية **identité** مفهوم عائم لا يقبل التحديد ولا ينصاع للاختزال، حيث أنه ليس مقترنا بحقل معرفي بعينه وإنما متشعب التخصصات حمَال لدلالات مختلفة، ويتعين إذن ضبط مصطلح الهوية من الناحية الاشتقاقية اللغوية والاصطلاحية من أجل الانتقال إلى جينيالوجيا نشأته فلسفيا.

في التأصيل اللغوي:

إنَ البحث التكويني في مفهوم الهوية في الدراسات الغربية يمكن رصده من خلال ولادة مفهوم الهوية وهذا يعود مباشرة من المعنى اللغوي الإنجليزي للمفهوم وهو مشتق من اللاتينية **identitand/identitas** وتعني الهوية المستمدة

من **identidem** (التي تعني مرارا وهذا يعني حرفيا نفس ونفس ونفس ... وهكذا مرارا) وغني عن القول، يجب أن يكون معنى التشابه مفهوما في هذا السياق ويقترن بمفهوم الهوية[1].

وقد ورد في لسان العرب لابن منظور أن الهوية مشتقة من الفعل هوى، هوة، وقيل الهوية بئر بعيدة المهواة أي الحفرة البعيدة القعر[2]، يحيلنا هذا التعريف إلى البئر العميقة، وتحيلنا الدلالات المجازية للبئر إلى عمق المفهوم نفسه وترتب معانيه وغورها، وبالتالي إلى استحالة استيفاء معانيه.

ويقال هوية من "هو" وهوية الشيء جوهره وحقيقته من حيث تميزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات[3]، وحدد جميل صليبا معنى الهوية في معجمه الفلسفي "هوية الشيء عينيته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له وقولنا أنه "هو" إشارة إلى هويته وخصوصيته[4].

من خلال هذه التعريفات نلاحظ أن دلالات مفهوم الهوية في المقاربات اللغوية تعني صفة تعطى لكائن أو لنوع أو لشيء ليعرف بها لتدل على ماهيته كما هو في الواقع بخصائصه ومميزاته أي ثوابته ومبادئه.

في التأصيل الاصطلاحي:

الهوية في الاصطلاح كما ذكر لالاند في موسوعته في اللغة الفرنسية "هي علامة ما هو متماه أي ميزة فرد أو كائن يمكن من هذا الوجه تشبيهه بفرد يقال عنه أنه متماه أو هو ذاته في مختلف فترات وجوده "هوية الأنا"[5].

أمَا في اللسان العربي فقد عرَفها الجرجاني بقوله "الهوية هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"[6].

إنَ المتتبع لمعاني لفظ الهوية يجد أنها في اللغتين العربية والفرنسية تعبر عن تلك الصفة التي لا تتبدل ولا تتأثر ولا تسمح لغيرها من الهويات أن تصبح مكانها أي مطابقة الشيء لنفسه وتحيل إلى حقيقته المطلقة.

وتختلف معانيها باختلاف الحقول المعرفية: ففي الفلسفة تطلق فلسفة الهوية على مذهب "شيلنغ" القائل بوحدة الطبيعة والفكر ووحدة المثال الأعلى والواقع وكل فلسفة لا تفرق بين المادة والروح هي فلسفة من هذا القبيل لأنها تجمع بينهما في وحدة واحدة لا تنفصل.

أمَا في المنطق فمبدأ الهوية يفيد بأن الشيء هو "هو"، ومبدأ الهوية هو المثل الأعلى للحكم التحليلي لأن المحمول في هذا الحكم ليس جزء من مفهوم الموضوع وإنما هو الموضوع نفسه[7].

أمَا في الرياضيات فتدل على علاقة بين شيئين أو كميتين متساويتين ويستخدم للدلالة على هذه العلاقة العلامة "=" مثلا س=ص.

وفي علم النفس تثار مشكلة الهوية فيما يتعلق بوحدة ذات الطفل أو الثبات أو الرجل أو الشيخ رغم اختلاف أطواره وما يقوم به من أدوار، ولكن في علم الاجتماع تثار مشكلة الهوية فيما يتعلق بهوية الشخص في الإطار الاجتماعي بأن يشعر بالهوية مع أشخاص المجتمع الذي يعيش وينمو فيه.

وفي نظرية المعرفة مبدأ الهوية إلى جانب مبدأ عدم التناقض والثالث المرفوع هي القوانين الضرورية للفكر المنطقي ولا يكون الفكر سليما من الناحية المنطقية إلا إذا التزم بها، وصيغته هي ما هو[8].

يصح بنا القول إذن أنَ مفهوم الهوية عموما ترحالي مع مختلف التخصصات ففي شحنته الفلسفية المنطقية، أو في لبوسه النفسي يحيل دائما إلى الذات والأصل والمرجعية والمميزات، إلاَ أن المعالجة المفهومية لمسألة الهوية أثبتت

استبطانها لحركة ديالكتيكية ما جعلها فلسفة قائمة بذاتها، وقد شكّلت بهذه الدلالة الدافع القوي للفلاسفة للبحث فيها منذ أقدم العصور.

يقع خطاب الهوية في قلب المسائلة الفلسفية على منوال المقاربات الكبرى كالوجود والميتافيزيقا والمعرفة والخير وغيرها، حيث توجه الفلاسفة منذ القديم للبحث فيها كما تحتل راهنا أهمية بالغة نظرا إلى أن مفهوم الهوية –بما هي خاصية ذات طابع وجداني– يستفز بحضوره أنظمة العقل الحداثي التي ألفت الأداتية والحسابية والتقنين .

بالعودة إلى محضن خطابات الهوية جينيالوجيا يمكننا إحصاء نوعين: خطاب ينتصر لبنية الثبات والمعاودة والتكرار في الهوية، وخطاب آخر ينتصر لبنية الاختلاف والتعدد والنسبية[9].

ويقصد بالخطاب الأوَل كل هوية تستمد فكرها وفلسفتها من خارج الذات أي قد تُستمد من الوجود أو الطبيعة أو القوى الغيبة الميتافيزيقية أو العادات الاجتماعية السائدة، وعليه سترغم الذوات على تكييف هوياتهم الذاتية وفق هويات قبلية يجدونها جاهزة فالأدوار الاجتماعية ثابتة تتحد بالجبلة التي جبل عليها كل فرد ولا سبيل لتغيير المقادير المقررة سلفا.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك تلقي القدماء لهوياتهم الذاتية والاجتماعية وذلك من طريقة تمثلهم بالوجود وتفهم الهوية لدى القدامى من خلال التناغم مع النظام الجاري في الكون ومن خلال التناغم مع الأنظمة الاجتماعية، حيث كانت الهوية مرتبطة بفلسفات الحضور الميتافيزيقية الكبرى كالواحد البارمينيدي الذي يحيل إلى وحدة الوجود بمعنى أن شيئا واحدا موجود وأن ما عداه مظاهر وظواهر[10].

"والمثال الأفلاطوني" و"الجوهر الأرسطي" وقد عبرت هوية هذه الآحاد عن نفور اللوغوس من مظاهر التناقض والاضطراب والتكثر وفي المقابل ميلانه للسكون والتوقف والانسجام، لذا كان اللوغوس رمزا للكمال الواحد وثباته في ماهيته وعدم تناقضه، كما أن فلسفة التغير التي تبناها هيراقليطس تعني أن كل موجود هو كذا وليس كذا في آن واحد، أو هو نقطة تتلاقى عندها الأضداد وتتنازعها فيمتنع وصفه بخصائص دائمة ضرورية إلا أن هيراقليطس لم يكن يقصد هذه النتيجة حيث أراد أن يضع حقيقة مطلقة فوق التغير المحسوس وعلما يقينيا في الجوهر الواحد[11].

يفترض نظام الكون الثبات والدوران والمعاودة في كل حلقاته وأنظمته فالتقسيم الأخلاقي للموجودات إلى كائنات عليا وسفلى، والتقسيم الأنطولوجي إلى عالمين متفاضلين بالقيمة والماهية: عالم ما فوق القمر وعالم ما تحت القمر (أرسطو) يجب أن يعاضده على المستوى المجتمعي تقسيم طبقي يجعل من السادة سادة بالفطرة وبالقدر الذي انتخبهم وحملهم هذه المرتبة وهذه المسؤولية، وعامة وعبيدا وحراسا خلقوا من معادن بخسة وسخروا لخدمة أولئك الذين انتخبتهم الأقدار ليكونوا من عجينة الذهب الخالص، يقول أفلاطون "مالم يتول الفلاسفة الحكم في الدول أو أن يتحول من نسميهم ملوكا وحكاما إلى فلاسفة حقيقيين فلن تنتهي الشرور من الدول بل من الجنس البشري"[12].

إنَ تقسيم المعادن الذي ذهب إليه أفلاطون يعني الانتماء إلى طبقة معينة من المجتمع فمعدن العبيد ليس هو نفس معدن الحكماء أو الجيش وهذا ما يؤكد به أفلاطون استحالة تغيير الطبائع لأنها آيلة إلى نظام الكون الخفي.

بات يتعين إذن أن نتلقى هويتنا من الهوية المنبسطة في نظام الكون، وأن ننجز حركات العودة إلى الأصل الذي فاضت منه النسخ أي في مستوى عالم الكثرة والاضطراب فلا نتعرف لا على ذواتنا ولا على الكون ويكفي أن يتطابق فكر المرء مع اللوغوس الحال في الطبيعة حتى يدرك أن هويته لا تغدو أن تكون ظلا لهوية الوجود –"الرواقية"– فليس من طبع الإنسان الذي حددته الطبيعة بالشكل الذي هو عليه أن يغير من نظامها لأن ذلك اختراق لسننها وهدم لمراتبها

فلا يمكن أن نغير وضعا قد يغير من نظام الطبيعة لأنَ ذلك سيجرنا إلى الفوضى، لذا تكمن الحكمة إذن في التزام كل أمرئ موقعه الأنطولوجي والاجتماعي، لأن في هذا الالتزام يتحقق الانسجام والعدل.

تبعا لذلك كما يلاحظ في التقسيم الطبقي الأفلاطوني والإغريقي عامة نستنتج أنه لا يتوجه إلى هويات الأفراد، بل إلى الجماعات الدموية التي شكلت المجتمع الطبقي ومنه نستنتج أن الهويات الفردية لم تكن موضوع سجالي في المجتمع الإغريقي لأن الفرد لا يوجد إلاَ باعتباره جزءا من منظومة أنطولوجية وطبقية وأخلاقية وهو لا يستطيع مغادرتها أو تغيير مقاديرها أو التمرد عليها لأنه فاقد لكل إرادة اختيار، لأن الهويات موجودة بصفة قبلية حددها اللوغوس، بيد أن نضال الهويات الفردية يبدأ مع العصور الوسطى خصوصا مع الدين الإسلامي.

كان الإسلام مشروعا حضاريا لمراجعة وإعادة تأسيس العلاقة بين الإنسان والله وبينه وبين الكائنات الأخرى فلم يستهدف القضاء على القيم الاجتماعية النبيلة الموجودة قبله ولم ينبذ الوحدة الاجتماعية التي تشكلت في نطاقها الهوية العربية القبيلة[13].

بل احتوى مرتكزات الهوية العربية قديمة ضمن مفهوم فلسفي وديني أوسع وأكثر انفتاحا من النموذج الجاهلي للهوية العربية القائم على التعصب لقيم ومعتقدات القبيلة والعشيرة وأحل محل ذلك النموذج مفهوم جديد للعقيدة وللعدالة العادلة الاجتماعية المرتكزة على وحدة الطبيعة البشرية ومبدأ المساواة بين أنواع الجنس البشري. يقول الله عز وجل في كتابه المقدس "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم"[14].

لقد غدا الإسلام حلقة الوصل التي تربط بين الهويات المختلفة التي آمن أصحابها بالدين الإسلامي أو دخلوا تحت وصاية الحكام المسلمين فالإسلام يقر بمبدأ التنوع الثقافي والاختلاف الطبيعي بين الأفراد والفئات الجماعية ولكن ضمن حدود المساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات.

ذكرنا آنفا أن الهوية خطابان عملنا على تحليل النوع الأول، أمَا الثاني فهو الذي ينتصر للاختلاف والتعدد ولنفهم ظروف نشأة هذا النمط من الهوية يتعين علينا العودة إلى لحظة الحداثة بحدثين متلازمين يتمثل الأول في ذلك الانقطاع الكلي عن العالم القديم وهجر ترسانته الميتافيزيقية الثقيلة أما الثاني فيعلن ميلاد الذاتية والفردية.

يختص الحدث الأول بأنَ أوَل ميسم يطبع الحداثة الغربية أو الوعي الحداثي هو نزع الطابع السحري عن العالم ورده إلى خارجية مطلقة وإرجاعه إلى علاقات موضوعية معلومة، فلم يعد ينظر إلى العالم كمجال سحري وكموضوع للتعاطف والتأليه بل بات منظورا إليه كعلاقات رياضية[15].

أمَا الحدث الثاني يختص في أن الحداثة تحمل دلالة اجتماعية تشي بتعميد الفرد كقيمة في ذاته وكائنية مشخصنة، حرة ومستقلة عن المحاضن الاجتماعية التقليدية، كما أنَها في المجال السياسي تجريد للدولة وعزل للحياة الخاصة عن الفضاء العمومي، كما أنها نحلة عقلية وهي فلسفة للذات حيث تضع الذات في عمق الكينونة ومصدرا للمعرفة ولا أدَل على ذلك من الفلسفات الحداثية كديكارت من خلال الكوجيتو وليبنتز وهيوم ولوك حيث رفعوا شعار الذاتية مهما اختلفت مشاريهم الفلسفية.

وصاحب هذين الحدثين أفول نظرية ثبات الهويات والأدوار الاجتماعية وانهارت تبعا لذلك قيم العبودية والاقطاعية التي تميز بها العصر الوسيط في أوروبا، ومنه ظهور الهويات الفردية وتنامي قيم الحرية والمساواة والقانونية فقد حملت الحداثة ثورة حرية على كل ما هو سائد وبديهي لتعلي من شأن هوية الأنا وذاتيتها وخصوصيتها ، ومدى مقاومتها لأشكال التبعية والهويات التقليدية الجاهزة.

وفي مقابل ذلك ظهرت مجموعة من الدراسات تحاول أن تتجاوز التوصيف الليبيرالي عن الهوية الفردية، فهي ترى أن الفرد يوجد دائما في وضع معين ويخضع دائما لوضع اجتماعي وثقافي معين ويخضع دائما لتجربة ثقافية تمنحه معنى لوجوده، وأن الفرد بقدر ما هو كائن ذاتي يتمتع بقدرات شخصية فإنه في الوقت نفسه كائن موضوعي لأنه عضو وعنصر في جماعة معينة تساعده على تشكيل هويته في الوقت نفسه، حيث يرى تشارلز تايلور أن المجتمعات التي تعيش تعددا ثقافيا يصبح فيها الاعتراف بالاختلاف حاجة ضرورية ملحة وذلك بالنظر إلى العلاقة القائمة بين الاعتراف والهوية[16].

يسعى خطاب الهوية في الأدبيات المعاصرة إلى ترسيخ الفردية وتعزيز الذاتية كجوهر أنطولوجي لكل إنسان، إلاَ أنَ التوفيق بين الهويات الفردية والمواطنة الجماعية واستعادة التوازن المفقود بين الفرد والجماعة هو مطلب عسير لذا فإن سؤال الهوية يتداخل في ظل المجتمعات الليبرالية الراهن مع خطاب المواطنة.

2- المواطنة "بين المفهوم والنشأة"

1.2- مفهوم المواطنة:

إن البحث في مفهوم المواطنة مقاربة لا بد منها ليس من أجل تكرار بداهة سائدة وإنما هو بحث في جينيالوجيا المصطلح من أجل التعرف على دلالته وكنهه وأبعاده في الفكر المعاصر.

ورد في لسان العرب: الوطن هو المنزل الذي نقيم فيه وهو موطن الإنسان ومحله، ويقال: أوطن فلان أرض كذا أي اتخذها محلا ومسكنا يقيم فيه والموطن ..ويسمى به المشهد من مشاهد الحرب وجمعه مواطن، وفي التنزيل ورد قوله تعالى "لقد نصركم الله في مواطن كثيرة"، وأوطنت الأرض ووطنتها واستوطنتها أي اتخذتها وطنا[17].

فالمواطنة من الوطن بالمعنى العام منزل الإقامة والوطن الأصلي هو المكان الذي ولد به الإنسان، أو نشأ فيه والوطن بالمعنى الخاص هو البيئة الروحية التي تتجه إليها عواطف الإنسان القومية، ويتميز الوطن عن الأمة والدولة بعامل وجداني خاص، وهو الارتباط بالأرض وتقديسها، لاشتمالها على قبور الأجداد[18].

يمكن القول بأن مصطلح المواطنة citoyenneté يتسع للعديد من المفاهيم التاريخية والاجتماعية والنفسية والسياسية والقانونية والطائفية، وذلك بما يجعل للمصطلح عددا من التعريفات التي تتعدد مع تعدد مفاهيمه، والتي نجمل أبرزها فيما يلي:

المواطنة في **مفهومها التاريخي** كمصطلح ينحدر من أصول لاتينية وإغريقية، تعني المشاركة في الشؤون المدنية فالمواطن تعني الفرد الذي يشارك في الشؤون المدنية.

أمَا المواطنة في **مفهومها الاجتماعي** فتعني علاقة اجتماعية تقوم بين فرد طبيعي ومجتمع سياسي أي دولة يقدم من خلالها المواطن الولاء للدولة على أن تتولى الدولة حماية الفرد وتتحدد العلاقة بين الفرد والدولة عن طريق أنظمة الحكم القائمة.

أما في **مفهومها السياسي** فتعني صفة المواطن الذي يتمتع بالحقوق ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماؤه لوطنه[19].

إنَ مفهوم المواطنة كما استقر في الفكر السياسي المعاصر هو مفهوم تاريخي شامل ومعقد له أبعاد عديدة ومتنوعة، منها ما هو مادي قانوني، ومنها ما هوُ ثقافي سلوكي ، ومنها ما هو وسيلة أو غاية يمكن بلوغها تدريجيا،

لذلك فإن نوعية المواطنة في دولة ما تتأثر بالنضج السياسي والرقي الحضاري كما يتأثر المفهوم عبر العصور بالتطور السياسي والاجتماعي وبعقائد المجتمعات.

وعليه نرى أن المواطنة في مفهومها ودلالاتها رؤى فكرية متعددة الجوانب من الصعب تحديدها بتعريف جامع مانع لأنها تتداخل مع مفاهيم أخرى كالهوية، والديمقراطية، والانتماء، القومية. لذا فالمواطنة فكرة متطورة غير ثابتة متقلّبة مع الأزمنة ومتأثرة بالظروف الخارجية كالمتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية ولا أدل على ذلك من النشأة التاريخية للمواطنة.

2.2 – نشأة مفهوم المواطنة:

يشغل موضوع المواطنة حيزا مهما في الثقافة والفكر المعاصرين خصوصا في المجتمعات المتعددة التكوينات إلاَ أن أصول فكرة المواطنة قديمة قدم الفكر الإنساني حيث ساهم الإرث اليوناني في نشأة مفهوم المواطنة، فظهور المدينة صاحبه بزوغ فكرة المواطن ومن خلال المدينة تولدت في أذهان اليونانيين فكرة أن السياسة مجال قائم بذاته في الحياة الجماعية فالمدينة اليونانية إذن هي التي أوجدت المواطن كعضو في جماعة المواطنين الأحرار حيث أنه على الرغم مما يفرق بين المواطنين في واقع الحياة الاجتماعية فإنهم يرون أنفسهم على المستوى السياسي وحدات متعاضدة داخل نسق يحفظ القانون توازنه ومعياره والمساواة فيه[20].

ولقد نشأت المدينة على أساس تصور اثني عرقي وبقيت منغلقة ومن هنا كان اكتساب الأجانب للمواطنة الأثينية أمرا استثنائيا لذلك اقتصر النشاط السياسي على أكثر أعضاء المدينة ثراء ونسبا وبقيت المدينة أسيرة التصور الاثني أو العرقي حيث يعرف المواطنون بأصولهم وانتماءاتهم وأنسابهم.

في نفس السياق في القرون الوسطى استمرت الكثير من معطيات العالم القديم من جهة وهيمنة الفكر الديني على المؤسسات الراعية له على مجمل الممارسات والأنظمة الاجتماعية والسياسية القرونوسطية في أوروبا[21].

غير أن السياسة الشرعية الإسلامية كانت ذات تعاليم فارقة حيث حددت وظيفة الحاكم فجعلتها تكليفية وليست تشريفية وكادت تقتصرها على الصلاحيات التنفيذية فهي واجبات تفرض النظام والعدالة الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع، وجعل الشرع الإسلامي من العدل الغاية العامة أو غاية الغايات من قيام سلطة الدولة أي أن أساس العدل هو التسوية في المعاملة والمساواة بين الرعايا في الحقوق والواجبات هذه الحقوق والواجبات المحددة لطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي أساس المفهوم الإسلامي للمواطنة[22].

فالإسلام وطن ودعوة للمواطنة لا فرق بين عربي وأعجمي يكفي أن يكون الفرد فيه مسلما حتى يضمن لنفسه حق المساواة مع غيره من المسلمين وهذه الحقوق تشمل كافة أبعاد حياته الاجتماعية الاقتصادية والمعرفية والسياسية.

لكن مع العصر الحديث شهد مفهوم المواطنة تغييرات عميقة في مضمونه ودلالاته فقد كان التأسيس الحداثي هو الأرضية الخصبة التي نما فيها مفهوم المواطنة وتشكلت دلالته الراهنة حيث تمثل جوهر الحداثة في تصور الإنسان باعتباره نقطة البدء في المعرفة والعمل إنه العقل الخالص أو الذات المفكرة أو الكوجيتو إنَه صاحب الإرادة الحرة والفعالية.

هكذا أصبحت السياسة استنباطا من العقل ولا أدَل على ذلك الارتباط بين الحداثة والمواطنة كالمنجزات الفكرية السياسية للحداثة: القانون الطبيعي، العقد الاجتماعي، حقوق الإنسان، والديمقراطية، المجتمع المدني[23].

وتبلورت النظم السياسية العالمية والنظم الديمقراطية والمبادئ التي أتت بها الثورة الفرنسية عام 1789 حيث رسخت المواطنة كحقوق وواجبات تقع على عاتق المواطنين، وهو ما استقر عليه في القرن الثامن عشر من حقوق مدنية كحرية التعبير والفكر والحريات الدينية وإقرار مبدأ المساواة أمام القانون والتأكيد على الحقوق السياسية في القرن التاسع عشر كحقوق المشاركة في إدارة شؤون البلاد وحق التصويت والترشيح وتقلّد الوظائف العامة[24].

تتراوح أطروحات الغربيين بين رؤى تختصر العلاقة بين الفرد ودولته إلى أدنى درجة ممكنة وبين أخرى ترى أن الفرد لا يعني شيئا أمام دولته، ففي الأولى لم توجد الدولة إلاَ من أجل الفرد وفي الأخرى لم توجد الفرد إلا لخدمة دولته.

ويعتمد منظروا فلسفة المذهب الفردي أمثال جون لوك وجان جاك روسو على أساس الاعتراف بحقوق الإنسان وحرياته العامة باعتبارها حقوقا طبيعية لكل فرد وليست مكتسبة ومهمة الدولة احترام وضمان تلك الحقوق[25]، "حيث صاغ لوك نظرية العقد الاجتماعي في الرسالة الثانية من الحكم المدني وفق منطق ليبرالي وتتميز حالة الطبيعة بحقوق طبيعية كالحرية الفردية والملكية الخاصة، كما يعترف لوك بحق مقاومة مفاسد الدولة عندما تضع حدا للحرية والملكية ويتأسس العقد الاجتماعي لإحلال السلم والحد من النزاعات وليس لإقامة السعادة كما هو الحال عند هوبز[26]، أما روسو فقد كان لأفكاره شأن كبير كأفكار لوك ومونتسكيو حيث مثلت قطيعة مع التصورات القرونوطسية لفكرة المواطنة من خلال تجاوزها للنقص الذي اعترى فكرة المواطنة لدى الإغريق بسبب اقتصارها على الحقوق السياسية دون الحقوق المدنية فلا فرق بين شخص وآخر ولا اختلاف بين الإنسان والمواطن فهما من طبيعة بشرية واحدة.

إنَ هذا الطرح تعوزه المسائلة النقدية فإذا كان المذهب الفردي يتجه إلى المساواة النظرية بين أفراده فإن الواقع الفعلي يؤكد عدم تساوي الأفراد في ظروفهم وقدراتهم وبالتالي فإن التفاوت والاختلاف حقق غلبة لفئة قوية على فئة أخرى ضعيفة.

بالمقابل يطرح المذهب الاشتراكي أنه لا معنى للحرية الفردية في ظل صراع المصالح الخاصة للطبقة الرأسمالية وما جدوى الحرية المضمونة بالدستور إذا كان الإنسان لا يجد الحماية من المخاطر والابتزاز بل وما فائدة حرية العمل إذا كان المواطن يترك فريسة للبطالة ما يضطره إلى التنازل عن حقوقه وحريته وكرامته ليواجه شروطا حياتية صعبة، هذا التوجه الذي ارتبط بفكر ماركس وترتكز فلسفته على إلغاء الملكية الفردية التي يعتقد أنها الباعث الحقيقي لعملية الصراع الاجتماعي ولذلك اعتمدت على مبدأ العمل للدولة فقط وفق شعار كل حسب طاقاته وكل حسب حاجاته، وهكذا تتراوح الرؤى والفلسفات في الغرب بشكل ينقض بعضه بعضا من أجل خلق مواطنة فاعلة ومنتجة ومسؤولة[27].

ومسايرة للتطور السياسي الحاصل في الدول الغربية قد أصبح بعض المفكرون ينَظرون لمفهوم جديد للمواطنة أسماه هابرماس مواطنة ما بعد الوطن وهي المواطنة الكونية العابرة للأوطان والتي نجد مرجعياتها في مبادئ مجردة من تجلياتها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وفي مرحلة ما بعد الحداثة أعطت الفلسفة الأمريكية خلال العقود الأخيرة انطلاقة جديدة للتأمل الأخلاقي والسياسي حول فكرة المواطنة وقد مَثل كتاب نظرية العدالة لمؤلفه جون راولز نموذجا لهذه الانطلاقة وتتمثل هذه النظرية في البحث عن التصور الأمثل لعدالة سياسية وتتأسس على مبدأين أساسين هما مبدأ الحرية ومبدأ الاختلاف.

يمكننا أن نفهم أن الغرض من هذه النظرية تحقيق قيم الحرية والمساواة بين كل المواطنين أي خلق مجتمع عادل لا يقيد اختلاف المذاهب الدينية أو التوجهات السياسية لمواطنيه ومساواتهم في الحقوق والواجبات.

كذلك تمثل نظرية راولز نقد لاذع للمذاهب النفعية والحدسية والعاجزة بحسبه عن صيانة الحقوق الأساسية للمواطنين حيث تعتقد هذه النظرية للعدالة بلزوم أقصى حد من السعادة لأكبر عدد من المواطنين وهي مستعدة بذلك للتضحية بحقوق الأقلية من الأفراد إذا كانت هذه التضحية قد تجلب من ورائها مصلحة غالبية المجتمع.

تمثل كل هذه النظريات امتداد لنظريات العقد الاجتماعي حيث تشترك كلها في الغاية والهدف ويتمثل في تحقيق معادلة الحقوق والواجبات، فنشأة مفهوم المواطنة يكشف سعي الإنسان للحصول على حقوقه وتحقيق مواطنته بما تقتضيه من فعالية كفرد حر مشارك في شؤون دولته محققا الاندماج بين هويته الذاتية واختلافاته –العرقية، الدينية، السياسية– وانتماءه الوطني كنوع من الاندماج بين الهوية والمواطنة.

3- جدلية المواطنة والهوية:

يشير مفهوم المواطنة إلى الانتساب الجغرافي لأفراد المجتمع من خلال الارتباط ببقعة جغرافية محددة تتمثل بالمدينة والدولة وبالوطن الواحد، أمَا الهوية فهي تشير إلى الانتساب الثقافي أي انتساب إلى معتقدات وقيم ومعايير معينة تحددها الثقافة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد والتي يكتسبها من خلال الولادة وعملية التنشئة الاجتماعية السوية التي يمر بها في حياته فالهوية لازمة للمواطنة لأن المواطنين لا بد لهم من نظام سياسي وعلاقات اقتصادية واجتماعية وقوانين تضبط هذه العلاقات، فليس الوطن الذي ينتسب إليه المواطنون هو الذي يحدد هويتهم فالوطن الواحد قد تتعاقب عليه نظم مختلفة بل ومتناقضة فالهوية إذن هي النظارة التي يرى من خلالها المواطنون ما هو مناسب أو غير مناسب صالح أو غير صالح لوطنهم، وإذا صح هذا فإن المواطنين مهما كان إخلاصهم لوطنهم وحرصهم على مصلحته لا يمكن أن ينظروا إلى تلك المصلحة باعتبارهم مواطنين فقط بل لا بد أن ينظروا إليها بحسب هوياتهم[28].

فالهوية هي الخصوصية التاريخية والثقافية التي تجمع بين أفراد الوطن الواحد وينتج عنها إحساس هؤلاء الأفراد بالانتماء إلى أمة معينة والارتباط بوطن معين وتكوين نسيجه المتجانس والمشاركة في أحداثه وصناعة مستقبله.

إذن ترتبط المواطنة بالهوية ولا تنفصل عنها ولذلك فإن التركيز على عناصر الهوية المشتركة التاريخية والثقافية بين أبناء الوطن الواحد يغذى الإحساس بالمواطنة والانتماء والاندماج الوطني، أهمية التركيز على عناصر الهوية المشتركة التي تعلو على الهويات الجزئية كالدين أو اللون أو العرق أو النوع أو الانتماء لمنطقة جغرافية قد تكون لها خصائصها الثقافية الجزئية.

ليست المواطنة إذن بديلا عن الهوية، وهي لا تعني التفاعل الإجباري بين الهويات أو هيمنة إحداها على الأخرى وإنما المواطنة دعامة إضافية للهوية وامتداد لها، ولا يمكن لحق من حقوق المواطنة أن يحل محل حق من حقوق الهوية ،فلا يمكن لحق حرية التعبير باعتباره حقا من حقوق المواطنة أن يشرع لانتهاك الرموز والشعائر الدينية المؤسسة بما هي حقوق فردية.

الخاتمة:

من خلال ما سبق يمكننا استخلاص النتيجة التالية:

ننتهي إلى الإقرار بأن الهوية والمواطنة مفهومان تاريخيان بأبعاد سيكولوجية سوسيولوجية ودلالة ثقافية، ورؤية إستيطيقة وجدانية، كما أنهما من المفاهيم التي كانت وليدة صراع خاضه الإنسان مع ذاته ومع الآخر عبر العصور، وأن مراحل إنجازهما كانت بصورة تدريجية متماشية مع المتغيرات الخارجية فمن المعروف أنَه يحدث تغير في الأطر والمفاهيم المعرفية تبعا للمتغيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية.

إنه ثمة اختلافات بصدد جينيالوجيا المفهومين وبصدد الملابسات والشروط التي أفضت إلى ظهورهما حيث أن القراءات في التاريخ اليوناني وامتداداته حتى العصر الوسيط تبين المعالجة الفكرية لمسألة الهوية والمواطنة، إلا أن نضج واكتمال خطاب الهوية والمواطنة يعود إلى فترة النهضة الأوروبية التي انبثق فيها الوعي التجديدي، والبعث الفكري والإصلاح الاجتماعي ومولد الدولة الوطنية المركزية وظهور الليبيرالية وتنامي الكشوف العلمية التي غيرت صورة العالم والإنسان وقلبت المركزية نحو الإنسان، ومنه إعلان الهوية الذاتية والفردية، كما أن الوعي والنقد ومن ثم محاولة التجسيد لمفاهيم الحرية والمواطنة والهوية هي قضايا الراهن الإنساني نظرا لتنامي المهمَشين والأقليات والحروب الأهلية وظهور المنظمات الإرهابية.

حسبنا الإقرار بتلازم الهوية والمواطنة فدائما ما يتداخلان، وعليه يجب أن لا تتعارض قيم المواطنة وقيم الهوية، وأن يكون هناك اندماج بينهما من أجل المساهمة الفعالة بالاقتراح والحضور والمشاركة دخل الدولة من قبل كل المواطنين، وإذا غاب هذا الاندماج تتحول الهوية إلى مقولة أيديولوجية والمواطنة إلى أداة سياسية الهدف منها تحييد الهويات الأخرى أو إفراغها من مضمونها الحضاري ومرجعيتها الأكسيولوجية والتاريخية والثقافية والاجتماعية.

الاحالات والمراجع:

[1]– دواق، الحاج. (2016). الدين والهوية بين ضيق الانتماء وسعة الإبداع، مؤمنون بلا حدود. الرباط: مؤمنون بلا حدود.

[2]– ابن منظور. لسان العرب. ج2، بيروت: دار صادر، ط3.

[3]– مذكور، ابراهيم. (1983). المعجم الفلسفي. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.

[4]– جميل، صليبا. (1982). المعجم الفلسفي، ج2. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982.

[5]– أندري، لالاند. (2012). موسوعة لالاند الفلسفية، تر/خليل أحمد خليل، ج2. بيروت: عويدات للنشر، بيروت.

[6]– محمد، الجرجاني. معجم التعريفات. القاهرة: دار الفضيلة.

[7]– جميل، صليبا. (1982). المعجم الفلسفي، ج2. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

كفافي، علاء الدين. (2009). علم النفس الأسري. مصر: دار الفكر.

[8]– بدوي، عبد الرحمن. (1984). موسوعة الفلسفة، ج2. القاهرة: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

[9]– مصطفى، بن تمسك. (2016). في التأصيل المفهومي للهوية، ضمن كتاب الهوية من ضيق الانتماء إلى سعة الابداع. الرباط: مؤمنون بلا حدود.

[10]– كرم، يوسف. (1999). تاريخ الفلسفة اليونانية. مصر: مكتبة النهضة المصرية.

[11]– مصطفى، بن تمسك. (2016). في التأصيل المفهومي للهوية، ضمن كتاب الهوية من ضيق الانتماء إلى سعة الابداع. الرباط: مؤمنون بلا حدود.

[12]– أفلاطون. (1968). الجمهورية. تر/فؤاد زكريا. القاهرة: دار الكاتب العربي.

[13]– ولد يب، سيدي محمد. (2010). الدولة وإشكالية المواطنة، قراءة في مفهوم المواطنة العربية. دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

[14]– القرآن الكريم. سورة الحجرات. الآية 13.

[15] – محمد، الشيكر. (2006). هيدغر وسؤال الحداثة. الرباط: أفريقيا الشرق.

[16]– دواق، الحاج. (2016). الدين والهوية بين ضيق الانتماء وسعة الإبداع، مؤمنون بلا حدود. الرباط: مؤمنون بلا حدود.

[17]– ابن منظور. لسان العرب. ج2، بيروت: دار صادر، ط3.

[18]– جميل، صليبا. (1982). المعجم الفلسفي، ج2. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

[19]– عطية، عبد الحليم صقر. ،دراسة تأصيلية تحليلية للمواطنة في الاسلام(واجبات وحقوق)، ص13

[20]– دومينيك، شنابر. (2016). ما المواطنة؟ تر/سونيا محمود نجا. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

[21]– مسرحي، فارح. (2016). المواطنة من الفكرة إلى العمل. مجلة دراسات في التنمية والمجتمع، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، دار النل للطباعة.

[22]– ولد يب، سيدي محمد. (2010). الدولة وإشكالية المواطنة، قراءة في مفهوم المواطنة العربية. دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

[23]– الخشت، حمد عثمان. (2015). تطور مفهوم المواطنة في الفكر السياسي الغربي. استرجع يوم 1 أوت 2018 ولأكثر تفاصيل نقترح الاطلاع على الرابط:

http/social.alafdal.net

[24]– سعيد، عبد الحافظ، المواطنة حقوق وواجبات، مركز ماعت للدراسات القانونية والدستورية، مصر.

استرجع يوم 14 أوت 2018.

ولأكثر تفاصيل نقترح الاطلاع على الرابط:

wwww.maatpeace.org

[25]– حسن حمداني، المواطنة ماهي؟

استرجع يوم 18 أوت 2018.

ولأكثر تفاصيل نقترح الاطلاع على الرابط: موقع الحوار المتمدن

www.m.ahewar.org.

[26]– ولد يب، سيدي محمد. (2010). الدولة وإشكالية المواطنة، قراءة في مفهوم المواطنة العربية. دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

[27]– دومينيك، شنابر . (2016). ما المواطنة؟ تر/سونيا محمود نجا. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

[28]– كاظم، ثائر رحيم. (2009). العولمة والمواطنة والهوية. العراق. **مجلة القادسية في الأدب والعلوم التربوية**. العدد الأول، المجلد الثامن.